بحوث في اللغة العربية: نصف سنوية علمية محكمة لكلية اللغات الأجنبية بجامعة إصفهان
العدد ١٥ (خريف وشتاء ١٤٣٨هـ. ق/ ١٣٩٥ هـ. ش)، ص ٦١ ـ ٧٥

حقل الألفاظ الدالّة على أعضاء الإبل في نهج البلاغة
(دراسة دلالية جمالية)[1]

علي‌أكبر مراديان قبادي *
سيدمحمود ميرزايي الحسيني **
صديقة كرمي ***

الملخص

لقد كان للإبل أهمية بالغة وشأن عظيم في حياة العرب القدامى، وقد نرى صدى ذلك في لغتهم حيث وضعوا للدلالة على هذا الحيوان وما يتعلّق به من آلات وأدوات مفردات كثيرة أدّت إلى توسيع نطاق هذا الحقل الدلالي توسيعاً لافتاً، فلا بدع أن نشاهد في نهج البلاغة أيضاً حضور هذه المفردات واستعمالها بأساليب أدبيّة بلاغيّة. تنوي هذه الدراسة بمنهج وصفي تحليلي أن تعالج دلالات وأساليب استعمال الألفاظ الدالّة على أعضاء الإبل التي وردت في نهج البلاغة وما أبدعه الإمام فيه بواسطتها من أغراض ومعان وتعبيرات، وقد حصلنا على نتائج لافتة؛ منها أنّ الإمام وظّف هذه التعبيرات توظيفاً مجازيّاً ليفيد أغراضاً تدور حول الإسلام والعقيدة وأهل البيت والعبادة والحثّ على الجهاد في معظم الأحايين بغية أن يجسّد للمخاطبين تلك المفاهيم عبر تعبيرات وألفاظ مأنوسة يلمسونها في حياتهم.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، علم الدلالة، الجمالية، الإبل، أعضاء الإبل.

١ـ تاريخ التسلم: ١٣٩٤/٤/٩هـ. ش؛ تاريخ القبول: ١٣٩٥/٨/٤هـ. ش.

❖ أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة لرستان (الكاتب المسؤول). Email: aliakbarmoradian@gmail.com
❖❖ أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة لرستان. Email: mahmudalhosaini@gmail.com
❖❖❖ طالبة الماجستير في قسم نهج البلاغة فرع أصول الدين والمعارف العلوية بجامعة لرستان. Email: edighehkarami@gmail.com

المقدمة

لنهج البلاغة أهمّية فائقة لدى المسلمين بعامّة والشيعة بخاصّة وهي مختارات من كلام الإمام عليّ عليه السلام جمعها الشريف الرضي بمعونة ذوقه السليم وقريحته الوقّادة في ثلاثة أقسام؛ خصّ قسماً بخطب الإمام عليه السلام وقسماً آخر برسائله ومكاتيبه والقسم الثالث بقصار الكلام.

قد استعملت في هذا الكتاب مفردات وتعبيرات خاصّة بالحقل الدلالي للفظة الإبل بصورة متميّزة وأسلوب خاصّ تنمّ عن مدى أهميّة هذا الحيوان في حياة العرب آنذاك حيث إنّ هذا الحيوان تكيّف وانسجم مع طبيعة صحاريهم الحارّة الجرداء فاستأنس بهم وأنسوا به، وألمّوا بسلوكيّاته وأمراضه وأدوائه وبكثيرٍ ممّا يمتّ إليه بصلة.

قد حفل كلام الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة بمفردات هذا الحقل الدلالي وأبدع الإمام عليه السلام بمعونتها صوراً بديعة الجمال تناسب الحال والمقتضى والمقام وقد افتنّ في استعمال أسمائها وصفاتها المتعدّدة والمختلفة والمتباينة أحياناً لبيان مقاصده.

ننوي في هذا المقال دراسة المفردات الدالّة على أعضاء الإبل، التي تمّ استعمالها في نهج البلاغة، وهي الجران، والغارب، والسنام والشقشقة دراسة دلالية جمالية، حيث يتكوّن المقال من أربعة مباحث وفق المفردات التي نعالجها.

وقد رأينا أنّ الإمام عليه السلام صاغ بمعونة هذه المفردات صوراً بلاغية متعددة ومتنوّعة تعبّر عن مفاهيم وأغراض ترتبط بالعقيدة والإسلام وأهل البيت وولايتهم ومسائل أخرى ترتبط بعصر الغيبة والإمام المهدي (عج) والخلافة والعبادة والزهد، وكذا يمدح أصحابه وينبّههم بما يهدّدهم من الفتن المحدقة ولاسيما فتنة بني أمية.

منهج البحث

استخرجنا في هذا البحث التعبيرات التي ترتبط بهذه الألفاظ في نهج البلاغة أوّلاً، ثمّ بحثنا عن دلالات المفردات المعنية في المعاجم والقواميس اللغوية، ثم ناقشنا الموضوع بمعونة شروح نهج البلاغة وأخيراً تمّ تحليل المعطيات ودراستها حسب المنهج الوصفي التحليلي.

وسؤال البحث في هذا المقال هو: ما هو أسلوب الإمام عليه السلام في توظيف المفردات الدالّة على أعضاء الإبل حسب ما جاء في نهج البلاغة؟

ونفترض أنّ الإمام عليه السلام استعان في خلق الصور البلاغية البديعة بهذه المفردات لأنّها كانت مألوفة لدى مخاطبيه.

سابقة البحث

لقد ألّف بعض الباحثين أبحاثاً تختلف عما ننوي دراسته، منها:

١ـ **"الإبل في القرآن والأدب العربي"** هذه المقالة كتبها يحيى معروف وتمّ طبعها في مجلة العلوم الانسانية سنة ٢٠٠٥م، ولم يتعرّض المؤلّف فيها لنهج البلاغة موضوع بحثنا بتاتا.

٢ـ **"نگاهى نمادين به حضور شتر در شعر دوره جاهلى"** (نظرة رمزية إلى حضور الإبل في الشعر الجاهلي) هذه المقالة كتبها الدكتور رضا أفخمى وتمّ طبعها في مجلة الأدب العربي سنة ٢٠٠٥م، وهي كسابقتها حيث لا تزاول موضوع بحثنا نهج البلاغة.

٣ـ **"يادكرد حيوانات در نهج البلاغه"** (ذكر الحيوانات في نهج البلاغة)، هذه المقالة أيضاً تم طبعها في مجلة "فرهنگ جهاد" سنة ٢٠٠٥م، وهي تتناول الحيوانات بعامّة في نهج البلاغة وتدرس عددا يسيرا جدّاً من أسماء الإبل ولا غير، إذاً يختلف عنها موضوع دراستنا إذ نحن نتناول الألفاظ الدالّة على أعضاء الإبل وليس الإبل بمطلقه.

٤ـ "بررسى بافت مدارانه دلالت ضمنى اندام واژه‌ها در نهج البلاغة" (دراسة سياقية لظلال المعاني للمفردات الدالّة على أعضاء الإنسان في نهج البلاغة)، كتبتها زينب فتاحي و آخرون سنة ١٣٩٥وهي لم تعالج أعضاء الإبل.

يختلف بحثنا هذا طبعاً عن البحوث المذكورة؛ لأنّها إمّا لا تدرس الموضوع دراسة دلالية جمالية، أو لا تعالجها في نهج البلاغة ويتعيّن الأخذ بعين الاعتبار أنّنا نقوم بدراسة الألفاظ الدالّة على أعضاء الإبل وهذا الموضوع لم تتطرّق إليه الدراسات السابقة بتاتاً.

١ـ البحث

بما أنّ للإبل أهمّية فائقة في حياة العرب في العصر الجاهلي والعصور التي تلته ولاسيّما العصر الراشدي، حيث وضعوا مفردات جمّة للدلالة على هذا الحيوان حسب جنسه وعمله وسنّه وما أشبه ذلك كما وضعوا ألفاظاً كثيرة للأشياء والمعدّات المتعلّقة به وألفاظاً كثيرة لأعضائه، وقد تم استعمال بعض هذه الألفاظ الدالّة على أعضائه في نهج البلاغة وهي ألفاظ الجران والغارب والسنام والشقشقة، ونحن الآن بصدد دراسة دلالات وصور هذه المفردات والتعبيرات في نهج البلاغة كلّ على حدة.

٢ـ ١ـ الجران

لقد وردت لفظة الجران في نهج البلاغة أربع مرّات، وقد ورد في معاجم اللغة في تحديد دلالة هذه اللفظة ما يأتي: "**الجِرانُ: باطن العُنُق، وقيل: مُقدَّم العنق من مذبح البعير إلى منحره، فإذا برَك البعيرُ ومدّ عنُقَه على الأرض قيل: ألقى جِرانَه بالأرض**" (انظر: الفراهيدي، ١٤١٠؛ ابن منظور، ١٤١٤؛ الصاحب، ١٤١٤، ذيل مادة «جرن»).

٢ـ ١ـ ١ـ التعبير الأوّل

"**حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِياً جِرَانَهُ وَمُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ**" (الخطبة ٥٦).

يتحدّث الإمام في هذه الفقرة حول بسالة أصحاب النبي ﷺ وشجاعتهم واستماتتهم في الدفاع عن رسول الله ﷺ وحوزة الإسلام، وهنا تدلّ عبارة "مُلْقِياً جِرَانَهُ" أيضاً على الاستقرار والثبات، ومجاورة هذا التعبير لمادّتي التبوّء والتوطّن تفصح عن هذه الدلالة وتؤكد عليها.

يرى ابن ميثم أنّ الإمام "**استعار لفظ الجران، ورشّح تلك الاستعارة بالإلقاء ملاحظة لشبهه بالبعير الذي أخذ مكانه، وكذلك استعار لفظ التبوّء ونسبه إلى الأوطان تشبيهاً له بمن كان من الناس خائفا متزلزلا لا مستقرّ له ثمّ اطمأنّ واستقرّ في وطنه. واستعار لفظ الأوطان لقلوب المؤمنين، وكنّى بتبوّء أوطانه عن استقراره فيها**" (البحراني، ١٤٣٠، ص ٢٧٤).

ويمكن أن ننظر إلى قوله عليه السلام "ومتبوّء أوطانه" من وجهة نظر أخرى، فيتمّ تخريجه استعارة مكنية، إذ إنّ الإمام شبّه الإيمان بالإنسان الذي يريد أن يحلّ في وطنه ويستقرّ في مأواه، ثمّ حذف المشبّه به (المستعار منه) وهو الإنسان وأتى بما يلائمه ويخصّه وهو الوطن، فهذه الصور على هذا التخريج الذي ذكرناه استعارة مكنية وإثبات الأوطان له استعارة تخييلية.

والإمام الخوئي وهو مرجع دين شيعي يشرح الصور البلاغية المتمثّلة في الاستعارة المكنية والتخييلية في كلامه عليه السلام حيث يقول: "**(حتّى) انتظم أمر الدّين و(استقرّ الإسلام ملقيا جرانه) تشبيه الإسلام بالبعير استعارة بالكناية وإثبات الجران تخييل وذكر الإلقاء ترشيح وكذلك قوله (ومتبوّء أوطانه) استعار لفظ التبوّء ونسبه إلى الأوطان تشبيها له بمن كان من النّاس خائفا متزلزلا غير مستقرّ ثمّ اطمأنّ واستقرّ في وطنه، واستعار لفظ الأوطان لقلوب المؤمنين وكنّى بتبوّء أوطانه عن استقراره فيها**" (الخوئي، ١٤٠٠، ج ٤، ص ٣٣٣)، أو ـ حسب تعبير محمد عبده ـ كنّى به عن التمكن إليها (عبده، ١٩٩٠، ص ١٧٨).

٢ـ ١ـ ٢ـ التعبير الثاني

"**فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الْإِسْلَامُ وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ وَأَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَجِهِ خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ**" (الخطبة ١٨٢).

يحسن قبل دراسة هذه الفقرة الكشف عن معنى "عسيب الذنب" وهي كما قال اللغويون أصل الذنب، أو عظمه أو منبت الشعر منه (ابن سيده، د.ت، مادة «ع س ب»)، وكذا يزيد ابن منظور: "**والعَسِيبُ والعَسِيبةُ: عَظْمُ الذَّنَب، وقيل: مُسْتَدَقُّهُ، وقيل: مَنْبِتُ الشَّعَرِ منه**" (ابن منظور، المصدر نفسه، مادة «ع س ب»).

هذه الفقرة من كلامه عليه السلام وردت حول بداية أمر ظهور مولانا الإمام الثاني عشر المهدي (عج) واختفائه وغيبته قبل الفرج، وهذه الغيبة والاختفاء حسب رأي الشيعة ابتدأ بعد زمنٍ يسيرٍ من ولادة الإمام (عج) إلى ظهوره وتشمل عصر الغيبة الصغرى والغيبة الكبرى، أما إخواننا أبناء أهل السنّة فمعظمهم ومنهم ابن أبي الحديد المعتزلي يرون أنّه (عج) غير موجود الآن يخلقه الله تعالى في آخر الزمان إلا أنّهم يؤكدون على أنّه (عج) سيكون له في بداية أمره اختفاء وغيبة حتّى يستقرّ الإسلام ويسع نطاق حوزته ويلقي بجرانه (ابن أبي الحديد، ١٤٠٤، ج ٧، ص ٩٤).

هنا أيضا يشبّه الإمام الديانة الإسلامية بالإبل على سبيل الاستعارة بالكناية وإثبات الجران للإسلام تخييل، وهنا يدلّ كلامه عليه السلام "أَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ" على الضعف وعدم الحركة والنشاط ولاسيّما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ هذه العبارة جاورت عبارتين أخريين تدلان على هذا المعنى وهما "اغْتَرَبَ الْإِسْلَامُ"، و"ضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ"، حيث تدلان أيضاً على الضعف والغربة وعدم الحركة.

يؤيد ابن أبي الحديد ما ذهبنا إليه عندما يشرح هذه الفقرة ويقول: "**ثم قال هو مغترب إذا اغترب الإسلام ـ يقول هذا الشخص يخفي نفسه ويحملها إذا اغترب الإسلام ـ واغتراب الإسلام ـ أن يظهر الفسق والجور على الصلاح والعدل ـ قال عليه السلام بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ قال وضرب بعسيب ذنبه وألصق الأرض بجرانه ـ هذا من تمام قوله إذا اغترب الإسلام ـ أي إذا صار الإسلام غريبا مقهورا ـ وصار الإسلام كالبعير البارك يضرب الأرض بعسيبه ـ وهو أصل الذنب ويلصق جرانه وهو صدره في الأرض ـ فلا يكون له تصرف ولا نهوض**" (١٤٠٤، ج ١٠، ص ٩٩).

ويؤيّد ابن ميثم نفس هذا المعنى إذ يعتبر كلامه عليه السلام هذا "**إشارة إلى إخفاء نفسه (عج) وإيثاره العزلة عند اغتراب الإسلام وضعفه وظهور البدع والمنكرات [...] واستعار لفظ العسيب والذنب والجران ملاحظة لشبهه بالبعير البارك، وكنّى بذلك عن ضعفه وقلة نفعه فإنّ البعير أقلّ ما يكون نفعه حال بروكه**" (المصدر نفسه، ص ٥٩٠).

إذن فهذا الكلام من ملاحم الإمام علي عليه السلام حول الإمام المهدي (عج)، وعبارة "وَأَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ" تنبئ عن لزومه الصمت وقعوده عن واجبه بسبب ضعفه وقلّة أعوانه في عصر الغيبة، وألفاظ الإلصاق والأرض والاغتراب تنمّ عن هذا المعنى.

ويجدر بالإشارة إلى أنّ عبارتي "ضَرَبَ بِجِرَانِهِ" و"ألقى جِرَانَهُ" تدلان على الاستقرار والسعة، كما أنّ تعبير "أَلْصَقَ بِجِرَانِهِ" يدلّ على الضعف والضيق، وذلك حسب المفردات والتعبيرات التي صاحبت هذه الألفاظ وهي (ضَرَبَ أو ألقى أو أَلْصَقَ) وما جاورتها من مفردات وتعبيرات في هذا النسيج اللغوي، وهي "أَقَامَ وَاسْتَقَامَ"، وتَبَوَّأَ أَوْطَانَهُ، و"قَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ"، و"اغْتَرَبَ الْإِسْلَامُ"، و"ضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ".

٢ـ ١ـ ٣ـ التعبير الثالث

"**وَسُئِلَ عليه السلام عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله غَيِّرُوا الشَّيْبَ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ، فَقَالَ عليه السلام: إِنَّمَا قَالَ صلى الله عليه وآله ذَلِكَ وَالدِّينُ قُلٌّ فَأَمَّا الْآنَ وَقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ وَضَرَبَ بِجِرَانِهِ فَامْرُؤٌ وَمَا اخْتَارَ**" (الحكمة ١٧).

هذه العبارة في كلام الإمام "ضرب بجرانه" تدلّ على اتّساع رقعة الإسلام والاستقرار والثبات فيها، وترمز إلى القوّة والتوسّع، وفيها نفس الاستعارة المكنية والاستعارة التخييلية اللتين ناقشناهما في المثالين السابقين وهي: تشبيه الإسلام بالبعير استعارةً بالكناية وإثبات الجران تخييلا إلا أنّ عبارة "قَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ" هنا تجريد.

كان الرسول ﷺ يأمر أهل الشيب من المسلمين بالخضاب وكان ينفّرهم عن تركه حتّى ينظر إليهم الكفار بعين القوّة والشبيبة وجعله الإمام في عصره مباحاً حيث كثر المسلمون وضعف الكفّار (البحراني، ١٤٣٠، ص ٩٣٩).

جدير بالذكر أنّ الإمام الخوئيّ يعتقد أنّ هذا التعبير يبين الحكم الاستحبابي للخضاب قائلاً: "**أمره ﷺ بتغيير الشيب بالسّواد أو الحناء، ظاهره الوجوب لحكمة ذكره عليه السلام فقوله: فامرؤ وما اختار، إعلام لنسخه فإنه قد ينسخ السّنة كما ينسخ القرآن، والظاهر أنه على وجه الاستحباب فقوله: فامرؤ وما اختار، ترخيص لتركه فإنّ الاستحباب مركب من الأمر وترخيص الترك ولا ينافي بقاء الحكم الاستحبابي زوال الحكمة التشريعيّة كما في وجوب أو استحباب غسل الجمعة المشرّعة لإزالة عفونة الإبط من الأعراب، ويشمل البريئين منها، فقول ابن ميثم في الشرح: إنّه عليه السلام جعله من المباح، مورد تأمّل فإنّ الأخبار الواردة في فضل الخضاب واستحبابه مطلقا غير قابلة للردّ والانكار**" (الخوئي، ١٤٠٠، ج ٢١، ص ٣٤).

٢ـ ١ـ ٤ـ التعبير الرابع

"**وَوَلِيَهُمْ وَالٍ فَأَقَامَ وَاسْتَقَامَ حَتَّى ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ**" (الحكمة ٤٦٧).

يشير الإمام إلى أحد الولاة وهو النبيّ الأكرم ﷺ أو سلمان الفارسي حيث أدّى تدبيره وحنكته إلى نشوء وإقامة الديانة الإسلامية واتّساع رقعة الإسلام بعبارة موحية استخدم فيها لفظة الجران في صورة بلاغية معبّرة ومؤثّرة يصرّح فيها أنّه استقام في الصراط المستقيم والطريق السويّ حتّى استقرّ الحقّ، ووسع نطاق حوزته والتعبير الكنائي "ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ" يدلّ على الاستقرار والثبات، ولفظتا "أَقَامَ" وَ"اسْتَقَامَ" ترسّخان هذا المعنى وتؤيّدانه.

يشرح ابن أبي الحديد هذه الصورة البلاغية بقوله: "**استعار أمير المؤمنين عليه السلام هذه اللفظة ـ لسعة رقعة الإسلام ـ وكذلك استعار قوله وضرب بجرانه أي أقام وثبت ـ وذلك لأن البعير إذا ضرب بجرانه الأرض ـ وجرانه مقدم عنقه فقد استناخ وبرك**" (ابن أبي الحديد، ١٤٠٤، ج ١٨، ص ١٢٤).

وهذه العبارة لها معنى كنائي أيضاً إذ إنّ عبارة "**وضربه بجرانه كناية بالوصف المستعار عن استقراره وتمكنه كتمكن البعير البارك من الأرض**" (البحراني، ١٤٣٠، ص ١٠٣٠).

٢ـ ٢ـ الغارب

قد جاء في قواميس اللغة في شرح هذه المفردة قولهم: "**الغَارِبُ: الكَاهِلُ من الخُفّ، أو هو مَا بَيْنَ السَّنَام والعُنُقِ، ج غَوَارِبُ**". (الزبيدي، ١٤١٤؛ ابن منظور، ١٤١٤، مادة «غرب»).

وردت لفظة الغارب في نهج البلاغة في ثلاثة تعبيرات وهي:

٢ـ ٢ـ ١ـ التعبير الأوّل

"**وَالَّذي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ**" (الخطبة ٣).

يشبّه الإمام في هذا الكلام أيضاً الخلافة بالإبل على سبيل الاستعارة المكنية ـ كما سبق ـ إلا أنّ المستعار له هنا هو الخلافة بدل الدنيا في الكلام السابق، وروعة هذه الاستعارة المكنية هي أنّها استعارة مكنية ترشيحية حيث إنّ الاستعارة المكنية أبلغ من الاستعارة التصريحية والاستعارة الترشيحية أبلغ من الاستعارتين المطلقة والمجرّدة، فإذن زاد الإمام جمالية الترشيح على جمالية الاستعارة المكنية في كلامه هذا، وقد شرح الإمام الخوئي هذه الاستعارة بقوله: "**شبّه الخلافة بالنّاقة التي يتركها راعيها لترعى حيث تشاء ولا يبالي من يأخذها وما يصيبها، وذكر الغارب وهو ما بين السّنام والعنق تخييل وإلقاء الحبل ترشيح**" (الخوئي، ١٤٠٠، ج ٣، ص ١١٢ - ١١٣).

ويحسن الإشارة إلى أنّ هناك صوراً بلاغية أخرى تزيد في جمالية المعنى في هذا التعبير، ومنها رأي ابن ميثم حيث يعتقد أنّ كظة الظالم كناية عن قوّة ظلمه وسغب المظلوم كناية عن قوّة ظلامته، وقوله ألقيت حبلها على غاربها استعارة إذ استعار وصفا من أوصاف الناقة للخلافة أو للأمّة وكنّى بها عن تركه لها وإهماله لأمرها ولّما استعار لها لفظ الغارب جعل لها حبلاً تلقى عليه وهو من ترشيح الاستعارة وأصله أنّ الناقة يلقى زمامها على غاربها فتترك لترعى (البحراني، ١٤٣٠، ص ١٦٣).

ومعنى كظة الظالم تخمته وبشمه، وكنى بها الإمام عن تماديه في العتوّ والطغيان، ومعنى سغب المظلوم جوعه وبؤسه (مغنية، ١٩٧٩، ج ١، ص ٩٨). فالإمام بهذا التعبير يكشف عن فلسفة السلطة وغاية الحكم حسب الرؤية الإسلامية، ويحصرها في إقامة القسط والعدل ودرء الظلم وإعانة المظلومين والمضطهدين، والوقوف في وجه المستكبرين والمستأثرين، ويعتقد أنّ تولّي أمور الناس أمانة في عنق الوالي والعامل، وليست الولاية للوالي بطعمة (راجع: نهج البلاغة، الكتاب ٥).

وهو يبيّن هوان الدنيا لديه بهذا الكلام كما يعرب عن حرصه واشتياقه الشديد إلى عدم التراضي والموافقة على مظلوميّة المظلومين ويشجب عدم المبالاة والسكوت على المنكرات والمناهي عند التمكن والقدرة ولا يرى في الخلافة خيراً إلا في إقامة العدل والقسط.

٢ـ ٢ـ ٢ـ التعبير الثاني

"**ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمُ الْبَلَاءُ كَمَا يَعَضُّ الْقَتَبُ غَارِبَ الْبَعِيرِ**" (الخطبة ١٨٧).

القتب هو "رَحْلٌ صغير على قدر السَنام" (الجوهري، ١٩٨٧، مادة «قتب»). يعبّر الإمام في هذه الفقرة عن عصر منتهى الغيبة وشدة البلايا في ذلك الأوان و"**ما يناله شيعته من البؤس والقنوط ومشقة انتظار الفرج**" (ابن أبي الحديد، ١٤٠٤، ج ١٣، ص ٩٧).

وهناك تجري الاستعارة التبعية التصريحية أو الاستعارة المكنية وهذه الصورة البلاغية يشرحها الإمام الخوئي بقوله: "**(ذلك إذا عضّكم البلاء كما يعضّ القتب غارب البعير) أى يشتدّ عليكم البلاء ويؤذيكم كما يؤذى القتب غارب البعير، فاستعار لفظ العضّ للأذيّة من باب الاستعارة التبعيّة، أو شبّه البلاء بالجمل الصعب الشموس على سبيل الاستعارة المكنيّة وذكر العضّ تخييلا، ثمّ شبه عضّ البلاء بعضّ القتب من باب تشبيه المعقول بالمعقول**" (الخوئي، ١٤٠٠، ج ١١، ص١٤٦).

٢ـ ٢ـ ٣ـ التعبير الثالث

"**إِلَيْكِ عَنِّي يَا دُنْيَا فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ وَأَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ**" (الكتاب ٤٥).

هذا التعبير "حَبْلُكِ عَلى غَارِبِك" من الكنايات التي كان العرب ولايزالون يستعملونه إِذَا طَلَّقَ أَحَدُهُم امرأته، وهي كناية كانت تستعمل منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا (انظر: الزبيدي، ١٤١٤؛ وابن منظور، ١٤١٤ق، مادّة «غرب»)، وقد استعمله الإمام هنا في الطلاق أيضاً، يقول ابن أبي الحديد في شرح هذه الصورة البلاغية: "**إليك عني أي ابعدي - وحبلك على غاربك كناية من كنايات الطلاق - أي اذهبي حيث شئت - لأن الناقة إذا ألقي حبلها على غاربها - فقد فسح لها أن ترعى حيث شاءت - وتذهب أين شاءت لأنه إنما يردها زمامها - فإذا ألقي حبلها على غاربها فقد أهملت**" (ابن أبي الحديد، ١٤٠٤، ج ١٦، ص ٢٩٤).

لكنّ ما زاده الإمام في جمالية هذا التعبير الكنائي وأبدعه هو أنّه استعمله في طلاق الدنيا وزخارفها وزبارجها وملذّاتها التي مثّلها الإمام بصورة امرأة. إذن يصوغ الإمام من هذه العبارة الكنائية استعارةً كنائية حيث شبّه الدنيا بالمرأة واستعمل الرمز الكنائي "حَبْلُكِ عَلَى غَارِبِك" تخييلاً، إذ هو من ملائمات المستعار منه (المرأة)، إضافة إلى تشبيه الدنيا المهملة أو المرأة المطلّقة بالإبل المرسلة السارحة التي لا راعي لها فترعى وتسرح حيث شاءت، أضف إلى هذا، روعة التشخيص المتكرّر عبر مخاطبة الدنيا ومحاورتها عدّة مرّاتٍ وهي "إِلَيْكِ"، "يَا دُنْيَا"، "حَبْلُكِ"، "غَارِبِكِ"، "مَخَالِبِكِ"، "حَبَائِلِكِ"، "مَدَاحِضِكِ"، "غَرَرْتِهِمْ"، "بِمَدَاعِبِكِ"، "فَتَنْتِهِمْ"، و"بِزَخَارِفِكِ". وهذا التكاثف التصويري والحشد الهائل من الصور البلاغية بتعدّدها وتنوّعها يزيد في براعة كلام الإمام وحسنه وجماله وهو يؤكد ويصرّح على زهده في الدنيا بهذا الأسلوب المتميّز، وعبارة "فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ" الدالة على الطلاق والإهمال وسياق بعض الجمل نحو "قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ" و"أَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ" و"اجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ" كلّها بيّنة الدلالة على تشجيع الإمام وتأكيده على النفور والفرار من مهالك الدنيا، وكذا الجملتان الاستفهاميتان تكشفان مصير الذين أحبّوا الدنيا فغرّتهم وفتنتهم وأهلكتهم ولاسيّما اسم الفعل "إليك عنّي بمعنى ابتَعِد وتَنَحَّ" (حسن، ١٩٦٦، ج ٤، ص ١٤٢) يدلّ على أنّ الابتعاد عن الدنيا هو الطريق الوحيد المؤدّي إلى السلامة والنجاة.

٢ـ ٣ـ السنام

سَنَامُ البعير والناقة: أَعلى ظهرها، والجمع أَسْنِمَة، ولعلّ استعمال السنام بمعنى أَعلاه يكون مجازاً (ابن منظور، ١٤١٤ق، مادّة «س ن م»).

هذه اللفظة قد وردت في نهج البلاغة بصورة الفعل والاسم أربع مرّات.

٢ـ ٣ـ ١ـ التعبير الأوّل

"**بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ وَتَسَنَّمْتُمْ ذُرْوَةَ الْعَلْيَاءِ**" (الخطبة ٤).

المقصود بهذا الكلام أهل البيت والمخاطبون هم الحاضرون المخالفون من قريش. والمراد أنّ أهل البيت هم سبب الهداية وقوله تسنّمتم العلياء أي بتلك الهداية وقد استعار وصف السنام للعلياء ملاحظة لشبهها بالناقة ورشّح تلك الاستعارة بذكر التسنّم وهي ركوب السنام وكنى به عن علوّهم (البحراني، ١٤٣٠، صص ١٦٤ـ ١٦٥).

وقد نصّ ابن أبي الحديد أن بعض هذه المصطلحات استعملت مجازاً حيث قال: "**وأما قوله عليه السلام بنا اهتديتم في الظلماء فيعني بالظلماء الجهالة وتسنمتم العلياء ركبتم سنامها وهذه استعارة**" (ابن أبي الحديد، ١٤٠٤، ج ١، ص ٢٠٨).

يجدر بالذكر أنّ بإمكاننا أن نجري في هذا الكلام إمّا استعارة أصلية مكنية مرشّحة أو استعارة تبعية مصرّحة مرشّحة، وقد أجرى الإمام الخوئي الاستعارة المكنية حيث قال: "**شبّه عليه السلام العلياء بالنّاقة وأثبت لها سنامها تخييلا ورشّح ذلك بذكر التّسنّم الذي هو ركوب السّنام استعارة**" (الخوئي، ١٤٠٠، ج ٣، ص ١٢٤).

كما يمكننا أن نقول: إنّه عليه‌السلام استعار لفظة التسنّم للترفّع والصعود استعارة تصريحية تبعية، فالمعنى على أيّ حالٍ أنّ المخاطبين أيّاً كانوا قد خرجوا من ظلام الضلال والشرك ودخلوا في ضياء الإيمان والهداية ونالوا العزّ والمجد والرفعة بما جاء به محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله وآله عليهم‌السلام من أسباب الهدى والبصيرة والنجاة.

فالسنام في هذه التعبيرات التي قاله الإمام يدلّ على الرفعة والشرف ومجاورة هذه اللفظة مع الكلمات كـ"لَهَامِيمُ" و"يَآفِيخُ" و"الشَّرَفِ" و"الْأَنْفُ الْمُقَدَّمُ" في الفقرة الأولى، و"مُنْتَهَى" و"ذِرْوَةَ" في الفقرة الثانية، و"جَبْهَة" في الفقرة الأخيرة تفصح عن هذا المعنى.

٢ـ ٣ـ ٢ـ التعبير الثاني

"**وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ وَيَآفِيخُ الشَّرَفِ وَالْأَنْفُ الْمُقَدَّمُ وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ**" (الخطبة ١٠٧).

يحسن بنا قبل الخوض في دراسة هذه الفقرة بيان دلالة المفردات الصعبة منها وهي اللهاميم واليآفيخ، أمّا اللهاميم جمع اللِّهَم وهو الفرس السابق الذي يجري أمام الخيل، جاء في العين: "**وفَرَسٌ لِهَمٌّ: سابقٌ يَجْري أمامَ الخَيْل، لالتِهامِهِ الأَرْضَ، والجمع: لَهاميمُ**" (الفراهيدي، ١٤١٠، انظر ذيل مادّة ل ه م). وأمّا عن اليآفيخ فقد جاء في معجم *تاج العروس من جواهر القاموس* ما نصّه: "**اليافوخ حيْثُ الْتقَى عَظْمُ مُقَدَّمِ الرَّأْسِ وعَظْمُ مُؤخَّرِه، وهو الموضع الذي يَتحرَّك من رأسِ الطِّفل، وقيل: هو حيْث يكون لَيِّناً من الصَّبيّ قبل أن يتَلاقَى العَظْمَانِ: السَّمّاعة والرَّماعة، وهو ما بينَ الهَامةِ والجَبْهة**" (الزبيدي، ١٤١٤، انظر ذيل مادّة أ ف خ).

في هذه الفقرة يشبّه الإمام أهل الكوفة مرّة بلهاميم العرب ومرّة بيآفيخ الشرف ومرّة بالأنف ومرّة أخيرة بالسنام الأعظم وهي كلّها لدينا تشبيهات بليغة على طريقة تشبيه الجمع، وتدلّ جميعها على الرفعة والعزّة والمجد والشرف، كما يمكن تخريج كلامه في التعبيرات الثلاثة الأخيرة، وهي "يَآفِيخُ الشَّرَفِ وَالْأَنْفُ الْمُقَدَّمُ وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ"، على الاستعارة المكنية؛ إذ إنّه عليه‌السلام قد شبّه أهل الكوفة مرّة بإنسان له يافوخ فحذف المشبه به (المستعار منه) وهو الإنسان وأثبت لهذه الاستعارة من أعضاء الإنسان وميزاته ما يلائم كلامه وهو اليافوخ تخييلاً، وفي الصورة الأخرى شبههم بإنسانٍ أيضاً ثمّ حذف المشبّه به (المستعار منه) إلا أنّه هذه المرّة اختار من ملائماته الأنف الذي يرمز شممه إلى العزّ والرفعة والسموّ والإباء على سبيل الاستعارة التخييلية، أمّا في الصورة الأخيرة فقد شبّههم بالإبل وحذف المشبه به (المستعار منه) وأثبت السنام لها على سبيل الاستعارة التخييلية.

والإمام الخوئي يعتبر الصورتين الأوليين صورتين تشبيهيتين والأخيرتين صورتين استعاريتين، لنتأمّل في قوله: "**(وأنتم لهاميم العرب) وساداتها (ويآفيخ الشرف) تشبيههم باليآفيخ لكونهم في علوّهم وشرفهم بالنسبة إلى العرب كاليآفيخ بالنسبة إلى الأبدان وكذلك التشبيه بـ(الأنف المقدم والسنام الأعظم) واستعارة لفظى الأنف والسنام لهم باعتبار العزّ والشرف، فإنّ الأنف أعزّ الأعضاء وأشرفها ومتقدّم عليها وحسن الوجه به**" (الخوئي، ١٤٠٠، ج ٧، ص ٢٧٧).

و ابن ميثم يرى أنّ الإمام عليه‌السلام "**استعار لفظ اليوافيخ لهم، إذ كانوا بالنسبة إلى العرب في علوّهم وشرفهم كاليوافيخ بالنسبة إلى الأبدان، وكذلك استعار لفظ الأنف والسنام، ووجه المشابهة عزّهم وشرفهم**" (البحراني، ١٤٣٠، ص ٤٢٣).

٢ـ ٣ـ ٣ـ التعبير الثالث

"**جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ وَسَنَامَ طَاعَتِهِ**" (الخطبة ١٩٨).

يبيّن الإمام في هذه الفقرة أهمّية الجهاد ومكانته العظيمة بين الفرائض الإسلامية الأخرى. إنّ الإمام عليه‌السلام يشبّه الطاعات بالإبل، وكأنّ كلّ طاعة بمنزلة عضو من أعضائها، وأمّا الجهاد فهو سنامها الذي هو فوق أعضاء الإبل الأخرى وعبارته على هذا التفسير نوع من التشبيه.

ويمكن تخريج كلامه عليه السلام بصورة أخرى، إذ بالإمكان أن نقول: إنّه قد شبّه الطاعات بالإبل، ثمّ حذف المشبّه به (المستعار منه) وذكر ما يلائمه وهو السنام، فهذه الصورة على هذا القول استعارة مكنية، وإثبات السنام له تخييل.

٢ـ ٣ـ ٤ـ التعبير الرابع

"**مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ جَبْهَةِ الْأَنْصَارِ وَسَنَامِ الْعَرَبِ**" (الكتاب ١).

قد شبّه الإمام عليه السلام العرب بالإبل وهو ينوي أنّ أهل كلّ مدينة بمنزلة عضو من أعضائها، وهنا يشبّه أهل الكوفة بالسّنام، وبما أنّ السنام أعلى أعضاء البعير وأشرفها فللكوفة ذروة الشرف والعلوّ والمجد.

ويحسن التنويه أخيراً بأنّه أحياناً يدلّ السنام على الشرف والذروة (راجع: الأصمعي، ١٤٢٤، ص ٨٧)، وهذه الدلالة ـ كما رأينا ـ قريبةٌ جدّاً ممّا نواه الإمام في معاني هذا اللفظ.

٢ـ ٤ـ الشِّقْشِقَة

قد ورد في معاجم اللغة في معنى هذه اللفظة أنّ "**الشِّقْشِقَة: لهاة البعير، وتجمع شَقَاشِقَ، ولا يكون ذلك إلا للعربي من الإبل**" (الفراهيدي، ١٤١٠؛ والصاحب، ١٤١٤، مادّة «شقق»). "**الشِّقْشِقَةُ بالكسر: لهاةُ البَعِيرِ، لما فيهِ ملأ الشَّقّ، قالَهُ الرّاغِبُ، وقالَ الجَوْهرِي: هو شَيء كالرِّئَةِ يُخْرِجُه البَعِيرُ من فيهِ إِذا هاجَ [...] وقالَ النَّضْرُ: الشقْشِقَةُ: جِلْدَةٌ في حَلْقِ الجَمَلِ العَرَبِيِّ يَنْفُخُ فيها الرِّيح، فتَنْتَفِخُ، فيَهْدِرُ فِيها قال ابنُ الأَثِير: الشِّقْشِقَةُ: الجِلْدَةُ الحَمْراءُ التي يُخْرِجُها الجَمَلُ من جَوْفِه، يَنْفُخُ فيها، فتَظْهَرُ من شدْقِهِ، ولا تَكُونُ إِلا للجَمَل العرَبِي**" (الزبيدي، ١٤١٤؛ وابن منظور، ١٤١٤ق، مادّة «شقق»).

قد وردت هذه اللفظة مرّتين في نهج البلاغة إحداها بصورة المفرد و الأخرى بصورة الجمع:

٢ـ ٤ـ ١ـ التعبير الأوّل

"**تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ**" (الخطبة ٣).

يعبّر الإمام هنا عن هياجه الذي أسفر عن أداء خطبته وانقشاع هذا الهياج بعد ذلك، فكما أدّى به هذا الهياج إلى إلقاء الخطبة فانقشاؤه أيضاً أسفر عن لزومه للصمت. ويجري كلامه هذا مجرى الاستعارة المكنية، فهو ـ حسب تعبير الإمام الخوئيّ ـ "**شبّه عليه السلام نفسه بالفحل الهادر فاستعار لخطبته لفظ الشّقشقة التي من خواص الفحل قيل: في الكلام إشعار بقلّة الاعتناء بمثل هذا الكلام إمّا لعدم التأثير في السّامعين كما ينبغي، أو لقلّة الاهتمام بأمر الخلافة من حيث إنّها سلطنة، أو للإشعار بانقضاء مدّته، فإنّها كانت في قرب شهادته، أو لنوع من التّقية أو لغيرها**" (الخوئي، ١٤٠٠، ج ٣، صص ١١٤ـ ١١٥).

٢ـ ٤ـ ٢ـ التعبير الثاني

"**لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضِلِّيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ فَإِذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا وَبَدَا مِنَ الْأَيَّامِ كُلُوحُهَا وَمِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ وَقَامَ عَلَى يَنْعِهِ وَهَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ عُقِدَتْ رَايَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ هَذَا وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ وَيُحْصَدُ الْقَائِمُ وَيُحْطَمُ الْمَحْصُودُ**" (الخطبة ١٠١).

هذه الخطبة من ملاحم الإمام عليه السلام وهو يشير فيها إلى سلطة معاوية بن أبي سفيان أو عبد الملك بن مروان، إلا أنّ معظم شرّاح نهج البلاغة ذهبوا إلى أنّه عبد الملك بن مروان (الطريحي، ١٣٧٥، ج ٤، ص ٨١؛ والقمي، ١٤١٤، ج ٥، ص ٢٦١، و ج ٦، ص ٩٢) وهناك من يرى أنّ مورد الإشارة هو السفياني (المجلسي، ١٤٠٣، ج ٣١، ص ٥٥١).

والإمام الخوئي يعدّد الصور البلاغية المتعدّدة في هذا التعبير كما يلي (الخوئي، ١٤٠٠، ج ٧، صص ١٧١ ـ ١٧٢):

١ـ (فإذا فغرت فاغرته) أي انفتح فوه وهو استعارة لاقتحامه للناس وافتراسه لهم بالفتك والقتل كما يفتح الأسد فاه عند افتراس فريسته.

٢ـ (اشتدّت شكيمته) وهو كناية عن شدّة بأسه وقوّته، لأنّ الفرس القوىّ شديد الرأس يحتاج إلى قوّة الشكيمة.

٣ـ (ثقلت في الأرض وطأته) وهو كناية عن شدّة جوره وظلمه.

٤ـ (عضّت الفتنة أبنائها بأنيابها) شبّه الفتنة بحيوان صائل وأثبت لها النّاب على سبيل التخييل ورشح الاستعارة بذكر العضّ وأراد بأبناء الفتنة أهلها، والمراد أنه إذا قوى سلطنة ذلك الضليل كثر الفتن ويقع أهلها في الشدّة والألم.

٥ـ (ماجت الحرب بأمواجها) كالبحر المتلاطم التيار المتراكم الزّخار مجاز في الإسناد.

٦ـ (بدا من الأيام كلوحها) نسبة الكلوح إلى الأيام من التوسّع في الإسناد وأراد به كثرة ما يلقى النّاس فيها من العبوس وسواء الحال وكذلك نسبة الكدوح إلى الليالي.

٧ـ (من اللّيالي كدوحها) وهو إشارة إلى ما يبتلى به النّاس فيها من المصائب الشبيهة بآثار الجراحات والخدوش والجنايات.

٨ـ (أقبلن كاللّيل المظلم) وجه تشبيهها بالليل كونها لا يهتدى فيها إلى حقّ كما لا يهتدى في ظلمة اللّيل إلى المقصد.

٩ـ (البحر الملتطم) أى كثير الأمواج وتشبيهها به في عظمها، وفي التّوصيف بالملتطم إشارة إلى خلط الخلق فيها بعضهم ببعض ومحق بعضهم بعضا كما يلتطم الأمواج بعضها بعضا هذا.

١٠ـ (هذا وكم يخرق الكوفة) أي يجوبها ويقطعها استعاره (من) ريح (قاصف) وهى التي تقصف كلّ ما مرّت عليه (وتمرّ عليها من) ريح (عاصف) قال الشارح البحراني: استعار وصفى القاصف والعاصف لما يمرّ بها ويجرى على أهلها من الشدائد (راجع: الخوئي، ١٤٠٠، ج ٧، صص ١٧١ ـ ١٧٢).

والصور البلاغية المستعملة في هذا الكلام لا تنتهي إلى هذا الحدّ، وهناك صور أخرى لم يذكرها الإمام الخوئي، كما أنّه بإمكاننا تخريج بعضها بصور أخرى، نذكر بعضها:

١ـ (ماجت الحرب بأمواجها) استعارة مكنية حيث شبّه الحرب بالبحر ثمّ حذف المشبّه به (المستعار منه) ورمز إليه بما يلائمه وهو الأمواج على سبيل الاستعارة التخييلية.

٢ـ (بدا من الأيام كلوحها) هناك أيضاً استعارة مكنية حيث شبّه الأيام بالإنسان أو أيّ حيوان آخر ثمّ حذف المشبّه به (المستعار منه) ورمز إليه بما يلائمه وهو الكلوح على سبيل الاستعارة التخييلية.

٣ـ (من اللّيالي كدوحها) كما أنّ هنا استعارة مكنية حيث شبّه الأيام بالإنسان ثمّ حذف المشبّه به (المستعار منه) ورمز إليه بما يلائمه وهو الكدوح على سبيل الاستعارة التخييلية.

٤ـ (فاذا أينع زرعه) استعارة تمثيلية حيث شبّه استتباب واستقرار الأمر للضلّيل بإيناع الزرع، فاستعار تعبير (أينع زرعه) لـ(استتبّ له الأمر) استعارة تمثيلية.

٥ـ (قام على ينعه) استعارة تمثيلية حيث شبّه استتباب الأمر للضلّيل واستواؤه على العريكة بالقيام على الينع، فاستعار تعبير (قام على ينعه) لـ(استوى له الأمر).

٦ـ (هدرت شقاشقة) استعارة تمثيلية كذلك، حيث شبّه هياج الضلّيل وتمكنه من السلطة واستيلاءه على أمور الناس وتهديد المخالفين وطردهم بالشقشقة التي تهدر، فاستعار تعبير (هدرت شقاشقة) لـ(هدّد المخالفين وتمكن من رقابهم).

٧ـ (برقت بوارقه) هنا استعارة تمثيلية حيث شبّه استيلاء ذلك الضلّيل على أمور الناس وقيامه بتهديد المخالفين وطردهم بالبوارق التي تبرق، فاستعار تعبير (برقت بوارقه) لـ(هدّد المخالفين وطردهم).

٨ـ (عقدت رايات الفتن المعضلة) مجاز حيث نسب الرايات للفتن وإنّما هي لأصحاب الفتن.

يشرح ابن ميثم أيضاً بعض الصور البلاغية ودلالاتها في هذه الخطبة؛ منها ما يتعلّق بصفات الإبل أو أعضائها حيث يقول: "**استعار لفظ العض للفتنة ووجه المشابهة ما يستلزمانه من الشدّة والألم، ورشّح تلك الاستعارة بذكر الأنياب، [...] ولفظ الشقاشق والبروق استعارة لحركاته الهائلة وأقواله المخوفة تشبيها بالسحاب ذي الشقاشق والبروق**" (البحراني، ١٤٣٠، صص ٤١٠ـ ٤١١).

إذن ـ كما رأينا ـ في هذا الكلام حشدٌ مكثّف من الصور البلاغية الرائعة التي تخلق بتعدّدها وتنوّعها جوّاً رهيباً يرمز إلى هذه التقلّبات السريعة والاضطرابات الدامية التي تنبّأ الإمام أنّها ستحدث على ساحة الكوفة، حيث يشبّه سرعة نشوء هذه الفتنة ورسوخها واشتدادها مرّة بالزرع ومرّة بالإبل ومرّة ثالثة بالعاصفة التي فيها برق ورعد، كما يشبّه الفتن أيضاً بالجيوش التي لها رايات ويشبّهها أيضاً بالليل المظلم والْبَحرِ الْمُلْتَطِمِ. ثمّ يستعير للطغاة الذين سوف يحكمون الكوفة لفظتي "القاصف" و"العاصف" ويشبّههم في تنازعهم على تملّكها بالأياعل التي تتضارب وتتناطح فيما بينها بالقرون حتّى تتسلّط على قطيع الغزلان، ويشبّه الشعب المسحوق الذي يدوسونه في هذه الصراعات المريرة فيما بينهم بالزرع الذي يحصدون قائمه ويحطّمون حصيده.

وجاء في *بحار الأنوار* أنّ "**المراد بالتفاف بعضهم ببعض اجتماعهم في بطن الأرض وبحصدهم قتلهم أو موتهم وبحطم محصودهم تفرق أوصالهم في التراب أو التفافهم كناية عن جمعهم في موقف الحساب أو طلب بعضهم مظالمهم من بعض وحصدهم عن إزالتهم عن موضع قيامهم أي الموقف وسوقهم إلى النار وحطمهم عن تعذيبهم في نار جهنم**" (المجلسي، ١٤٠٣، ج ٤١، ص ٣٥٧).

ومصطلحات مثل "الضِلِّيل"، و"فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ"، و"اشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ"، و"ثَقُلَتْ"، و"وَطْأَتُهُ"، و"عَضَّتْ"، و"الْفِتْنَة"، و"الأَنْيَاب"، و"مَاجَت"، و"الأَمْوَاج"، و"اللَّيَالِي"، و"الكلوح"، و"الْمُعْضِلَة" و"اللَّيْل الْمُظْلِم" و"الْبَحْر الْمُلْتَطِم" و"قَاصِف" و"عَاصِف" و"يُحْصَدُ الْقَائِمُ" و"يُحْطَمُ الْمَحْصُودُ" تفصح عن الفتن والشدائد والضلالة والتقلّبات الهائلة، وهذه الفتنة تأتي بسرعة خاطفة وتضمحلّ بسرعة خاطفة أيضاً وسياق الجملة يساعد في فهم سرعة مجيء هذه الفتن وسرعة اضمحلالها وليس انكشافها إذ تحلّ محلّها فتنٌ أخرى متناوبة ومتواصلة وألفاظ كـ"البوارق" و"يَمُرُّ" تنبئ عن هذه السرعة وتكشف عن هذا التحوّل.

٢ـ ٥ـ الضّرع

ضَرْع الشاة والناقة: مدرّ لبنها. والجمع: ضُرُوع (ابن سيده، د.ت؛ وابن منظور، ١٤١٤ق، مادّة «ضرع»).

قد وردت هذه اللفظة مرّتين في *نهج البلاغة* إلا أنّ إحداها وهي الحكمة الأولى (راجع الصالح، ٢٠٠٤، ص ٤٦٩)، في معناها الحقيقي فضربنا عن ذكرها صفحاً و أمّا المعنى المجازي فيتمثّل في:

٢ـ ٥ـ ١ـ التعبير الأوّل

"**فَيَا عَجَباً بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا**" (الخطبة ٣).

يشرح العلامة المجلسي المفردات العويصة في هذه الخطبة وينطلق منها إلى بعض أهمّ دلالاتها أيضاً إذ يقول: "**وتشطّرا: إمّا مأخوذ من الشطر ـ بالفتح ـ بمعنى النّصف، يقال: فلان شطّر ماله .. أي نصّفه، فالمعنى أخذ كلّ واحد منهما نصفا من ضرعي الخلافة، وأما منه بمعنى خلف**

النّاقة ـ بالكسر ـ أي حلمة ضرعها، يقال: شطّر ناقته تشطيرا: إذا صرّ خلفين من أخلافها ... أي شدّ عليهما الصّرار، وهو خيط يشدّ فوق الخلف لئلّا يرضع منه الولد، وللنّاقة أربعة أخلاف، خلفان قادمان ـ وهما اللّذان يليان السرّة ـ، وخلفان آخران. وسمّى عليه السلام خلفين منها ضرعا لاشتراكهما في الحلب دفعة" (المجلسي، ١٤٠٣، ج ٢٩، ص ٥٢٢).

يصرّح الإمام أنّ الخليفتين الأوّل والثاني أسرفا في استئثار بيت المال وتنحية الآخرين من الحكم وقد شبّه ذلك باثنين يقتسمان أخلاف الناقة.

يرى ابن ميثم أنّ الإمام "**قد استعار لفظ الضرع ههنا للخلافة، وهي استعارة مستلزمة لتشبيهها بالناقة. ووجه المشاركة المشابهة في الانتفاع الحاصل منها، والمقصود وصف اقتسامهما لهذا الأمر المشبه باقتسام الحالبين أخلاف الناقة بالشدّة على من يعتقد أنّه أحقّ بها منهما أو على المسلمين الذين يشبهون الأولاد لها**" (البحراني، ١٤٣٠، ص ١٥٧).

قال ابن أبي الحديد المعتزلي أيضاً في شرح هذا الكلام: "**للناقة أربعة أخلاف خلفان قادمان وخلفان آخران وكل اثنين منهما شطر وتشطرا ضرعيها اقتسما فائدتهما ونفعهما والضمير للخلافة وسمى القادمين معا ضرعا وسمى الآخرين معا ضرعا لما كانا لتجاورهما ولكونهما لا يحلبان إلا معا كشيء واحد**" (ابن أبي الحديد، ١٤٠٤، ج ١، ص ١٧٠).

فنرى ابن أبي الحديد كذلك يرى ما رآه المجلسي والآخرون، إذ لا يحتمل كلام الإمام غير هذا المعنى ولم يكن في مقدور الشارح المعتزلي أن يحمّل هذا اللفظ معنى لا يؤدّيه ولا يحتمله بوجه من الوجوه، فالمعنى بناءً على كلا القولين هو أنّهما نصّفا بينهما منافع بيت المال واستأثراها ولم يسمحا للآخرين أن يستفيدوا منها.

٢ـ ٦ـ الخُفّ

قال الفراهيدي في تحديد دلالة هذه اللفظة: "**الخُفُّ: مجمع فرسن البعير، والجمعُ: أخفافٌ**" (الفراهيدي، ١٤١٠، مادّة «خ‌ف‌ف»). وأكد بعض اللغويين أنّ الخفّ يستعمل للإبل، فقد قال ابن سيده: "**والخُفُّ: مجتمع فرسن البعير والناقة، وقد يكون الخُفُّ للنعام، سووا بينهما للتشابه**" (ابن سيده، د.ت، مادّة «خ‌ف‌ف»). كذا قال الجوهريّ: "**والفِرْسِنُ من البعير، بمنزلة الحافر من الدّابّة**" (الجوهري، ١٩٨٧، مادّة «خ‌ف‌ف»).

وقد وردت هذه اللفظة مرّتين في نهج البلاغة إحداها بصورة الجمع والأخرى بصورة المفرد:

٢ـ ٦ـ ١ـ التعبير الأوّل

"**فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا**" (الخطبة ٢).

السُّنْبُك: طرَفُ الحافِرِ وجانباه من قُدُمٍ، وجمعهُ سَنَابِكُ (ابن منظور، ١٤١٤ق؛ والزبيدي، ١٤١٤؛ والفراهيدي، ١٤١٠، مادّة «س‌ن‌ب‌ك»).

يرى ابن ميثم أنّ: "**قوله في فتن داستهم بأخفافها ووطأتهم بأظلافها وقامت على سنابكها يحتمل أن يكون في فتن متعلّقة بهم سارت أعلامه وقام لواؤه، ويحتمل أن يتعلّق بمقدّر يكون خبراً ثانياً لقوله والناس، وهذه الفتنة هي التي أشار إليها أوّلاً وإنّما أوردها ثانياً بزيادة أوصاف فبالغ في تشبيهها بأنواع الحيوان فاستعار لها أخفافاً وأظلافاً وحوافراً وجعل لها دوساً ووطأً وقياماً على الحوافز، ويحتمل أن يكون هناك إضمار، أي داستهم بأخفاف إبلها ووطأتهم بأظلاف بقرها وقامت على سنابك خيلها فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه وحينئذ يكون التجوّز في نسبة الوطئ والدوس والقيام إليها فقط وهو المجاز في الإسناد**" (البحراني، ١٤٣٠، ص ١٤٩).

يوضح الإمام الخوئي الصور البلاغية التي هي استعارات مكنية على رأيه الشخصي، ومجازات عقلية على رأي البحراني الذي ينقله عنه. يقول الإمام الخوئي: "**شبّه عليه السلام هذه [الفتن] بأنواع الحيوان فاستعار لها أخفافا وأظلافا وحوافر وقال (داستهم) أى وطأتهم**

(بأخفافها، ووطأتهم بأظلافها، قامت على سنابكها) أى أطراف حوافرها. قال الشّارح البحراني ويحتمل أن يكون هناك إضمار، أى داستهم بأخفاف إبلها ووطأتهم بأظلاف بقرها وقامت على سنابك خيلها، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وحينئذ يكون التّجوز في نسبة الوطئ والدّوس والقيام إليها فقط وهو المجاز في الاسناد" (الخوئي، ١٤٠٠، ج ٢، ٢٩٩).

وعلى كلّ حالٍ فإنّ الإمام عليه السلام يشبّه الفتنة مرّةً بالإبل التي تدوس الناس بأخفافها ومرّةً بالبقر التي تدوس الناس بأظلافها ومرّة ثالثة بالفرس التي تدوسهم بحوافرها وسنابكها، والناسُ في هذه الظروف التي يصوّرها الإمام لا محالة منكوبون في هذه الفتن التي هي فتن العصر الجاهلي على قول أو هي فتن تنبّأ بها الإمام عليه السلام وهي حدثت بعد استشهاده.

٢ـ ٦ـ ٢ـ التعبير الثاني

"لا يَزْكُو بِهَا خُفٌّ وَلا حَافِرٌ وَلا ظِلْفٌ" (الخطبة ١٩٢).

قبل دراسة النصّ يتعيّن علينا تحديد دلالات لفظتي الحافر والظلف إذ إنّهما قريبا الدلالة من الخفّ وجميعها بمنزلة القدم من الإبل والفرس والبقر.

قد ورد في بعض كتب اللغة أنّ: **"الحافر من الدّوابّ: ما يقابل القدم من الإنسان"** (أنيس، ١٣٧٦، مادّة «حفر»)، كذا قال ابن سيده: **"والحافِرُ من الدواب، يكون للخيل والبغال والحمير"** (ابن سيده، د.ت، مادّة «حفر»)، وقال الزبيدي: **"والحَافِرُ: واحِدُ حَوَافِرِ الدَّابَّةِ: الخَيْلِ والبِغَالِ والحَمِيرِ"** (الزبيدي، ١٤١٤، مادّة «حفر»). أمّا الظلف ففسّره الصاحب ابن عبّاد بقوله: **"الظِّلْفُ: ظِلْفُ البَقَرَةِ وغَيْرِها، وهو ظُفْرُها"** (الصاحب، ١٤١٤، مادّة «ظلف»)، كما أنّ الزبيدي أيضاً حدّد دلالة هذه الفظة إذ قال: **"والظِّلْفُ بالكَسْرِ: ظُفُرُ كُلِّ ما اجْتَرَّ، وهو للبَقَرةِ والشّاةِ والظَّبْيِ وشِبْهِها بمَنزِلَةِ القَدَمِ لنا، ج: ظُلُوفٌ وأَظْلافٌ وقالَ ابنُ السِّكِّيتِ: يُقالُ: رِجْلُ الإِنْسانِ، وقَدَمُه، وحافِرُ الفَرَسِ، وخُفُّ البَعيرِ والنّعامَةِ، وظِلْفُ البَقَرةِ والشّاةِ"** (الزبيدي، ١٤١٤، مادّة «ظلف»)، فالخف للجمل والحافر للفرس والظلف للبقر والغنم (راجع: مغنية، ١٩٧٩، ج ٣، ص ١٢٩).

بعد تحديد دلالات هذه الألفاظ انكشف لنا أنّ الإمام استعمل كلّاً من الخفّ والحافر والظلف استعمالاً مجازياً، إذ أطلق الجزء وأراد به الكلّ، والمقصود من الخفّ في كلامه الإبل وأمثالها، ومقصوده من الحافر الخيل وما يشبهه، وينوي بالظلف البقر وما يماثله في كونه ذا ظلف.

يشرح الإمام الخوئي كلام الإمام عليه السلام قائلا: **"أي لا يزيد ولا ينمو بتلك الأرض ذوات الخفّ كالإبل والحافر كالخيل والبغال والظلف كالبقر والغنم، وعدم نمائها بها لما عرفت من قلّة مائها ونباتها وخشونة جبالها وسهولة رمالها وخلوّها من المرتع والمرعى"** (الخوئي، ١٤٠٠، ج ١٣، ص ٣٤٠).

ثمّ يبيّن الإمام فلسفة استقرار الكعبة في هذه الصحراء الجرداء وقد كان هيّناً له تعالى أن يجعلها **"بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ جَمِّ الْأَشْجَارِ دَانِيَ الثِّمَارِ مُلْتَفَّ الْبُنَى مُتَّصِلَ الْقُرَى بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ"** (الخطبة ١٩٢)، إلا أنّه تعالى لم يفعل ذلك زيادة للأجر ومزيداً للمثوبة.

٣ـ الخاتمة

١. كثرة الألفاظ المرتبطة بالحقل الدلالي لأعضاء الإبل في نهج البلاغة تنمّ عن أهمية هذا الحيوان لدى العرب المعاصرين من جهة، وتكشف عن رعاية أحوال المخاطبين ومطابقة المقتضى والمقام في كلام أمير المؤمنين من جهة أخرى، حيث استعمل ألفاظاً و صوراً يعرفونها كلّ معرفة ويستأنسون بها.

٢. قد صاغ الإمام بمعونة ألفاظ هذا الحقل الدلالي صورا بلاغية متعدّدة ومتنوّعة، منها الاستعارات بأنواعها التصريحية والمكنية والمرشحة والمجردة والمطلقة.

٣. استعمال الاستعارات في كلام الإمام (ع) أكثر من التشبيهات واستعمال الاستعارات المكنية أكثر من الاستعارات التصريحية والاستعارات الترشيحية أكثر من الاستعارات المطلقة والمجرّدة، وهذا الموضوع ينمّ عن البراعة في خلق الصور البيانية في نهج البلاغة.

٤. بيّن الإمام (ع) عبر الصور المسبوكة بواسطة هذه الألفاظ مفاهيم وأغراضاً ترتبط بالعقيدة والإسلام وأهل البيت وولايتهم ومسائل ترتبط بعصر الغيبة والإمام المهدي (عج) والخلافة والعبادة والزهد، وكذا يمدح أصحابه وينبّههم بما تهدّدهم من الفتن المحدقة ولاسيما فتنة بني أمية، ويبيّن فلسفة فضل مكة وحجّها.

٥. يؤكد الإمام (ع) على حقّه في الخلافة ويصرّح أنّ الخلفاء الراشدين الثلاثة ولاسيّما الاثنين الأوّلين غاصبون، بحيث يذعن ابن أبي الحديد وهو من إخواننا أبناء أهل السنّة لهذا التأكيد ولهذا التصريح الذي ورد في كلامه.

المصادر والمراجع

١. ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله. (١٤٠٤). ***شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد***. (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم). قم: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي.

٢. ابن ابي طالب، علي (ع). (٢٠٠٤). ***نهج البلاغة***. (فهرسة صبحي الصالح). (ط ٤). القاهرة ـ بيروت: دار الكتاب المصري بالاشتراك مع دار الكتاب اللبناني.

٣. ابن سيده، (د. ت). أبو الحسن علي بن إسماعيل. ***المحكم والمحيط الأعظم***. (تحقيق عبد الحميد هنداوي). بيروت: نشر دار الكتب العلمية.

٤. ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٤١٤ق). ***لسان العرب***. (ط ٣). بيروت: دار صادر.

٥. الأصمعي، أبو سعيد عبدالملك. (١٤٢٤). ***كتاب الإبل***. (تحقيق: حاتم صالح الضامن). الإمارات المتحدة العربية: دار البشائر.

٦. أنيس، إبراهيم؛ وآخرون. (١٣٧٦ هـ، ش). ***المعجم الوسيط***. (ط ٧) قم: نشر مكتب النشر والثقافة الإسلامية.

٧. البحراني، كمال الدين ابن ميثم. (١٤٣٠). ***شرح نهج البلاغة***. (ط ٢). قم: دار الحبيب للطباعة والنشر.

٨. الجوهري، أبونصر إسماعيل بن حمّاد. (١٩٨٧). ***الصّحاح***. (تحقيق أحمد عبد الغفور عطار). (ط ٤). بيروت: نشر دار العلم للملايين.

٩. حسن، عباس. (١٩٦٦). ***النحو الوافي***. (ط ٣). القاهرة: نشر دار المعارف

١٠. الخوئي، ميرزا حبيب الله. (١٤٠٠). ***منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة***. (تصحيح: سيد ابراهيم الميانجي). (ط ٤). طهران: مكتبة الإسلامية.

١١. الزبيدي، محمد مرتضى. (١٤١٤). ***تاج العروس من جواهر القاموس***. (دراسة وتحقيق علي شيري). (ط ١). بيروت: دار الفكر.

١٢. الصاحب، إسماعيل بن عبّاد. (١٤١٤). ***المحيط في اللغة***. (ط ١). بيروت: عالم الكتب.

١٣. الطريحي، فخر الدين بن محمد. (١٣٧٥). ***مجمع البحرين***. (ط ١). طهران: مكتبة المرتضوي.

١٤. عبده، محمد. (١٩٩٠). ***شرح نهج البلاغة***. (إشراف عبد الله أنيس الطبّاع وعمر أنيس الطبّاع). (ط ١). بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر.

١٥. الفراهيدي، خليل بن أحمد. (١٤١٠). ***العين***. (تحقيق مهدي المهزومي وإبراهيم السّامرائي). (ط ٢). قم: نشر مؤسسة دار الهجرة.

١٦. القمي، عباس. (١٤١٤). ***سفينة البحار***. قم: دارالاسوة للطباعة و النشر،

١٧. المجلسي، محمد باقر بن محمد تقی. (١٤٠٣). ***بحار الأنوار***. (ط ٢). بیروت: دار احیاء التراث العربي.

١٨. مغنية، محمد جواد. (١٩٧٩). ***في ظلال نهج البلاغة***. (ط ٣). بيروت: دار العلم للملايين.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی